

سلسلة : رؤية نقدية لواقع التراث العمراني الخليجي كمدخل لعمارة المستقبل في المنطقة الخليجية (1)

أهمية التراث العمراني

م/ علي عثمان الناجم
عضو الهيئة السعودية للمهندسين

البريد الإلكتروني : aliuth5@yahoo.com

نشأت المدن المختلفة في العالم العربي والاسلامي والخليجي خاصة على ثروة لاتقدر بثمن من التراث العمراني وبقايا الماضي العريق.ولكن رياح التطور الحديث جرف ذلك الماضي أو أغلبه وخلف بقايا أو أطلال كأنها تقول للأجيال كان هنا يوماً تاريخ . فبدأت مع هذا الاندثار لتلك المدن صيحات المناداة بالحفاظ على التراث العمراني .و يقصد بالحفاظ القيام بمنع تدهور وتشويه المدن القديمة او البيئة التاريخية او المباني التراثية والعمل على اطالة حياة التراث والطابع الحضارى المميز (والى 1985)والحفاظ هو حماية للمدن القديمة والبيئة التاريخية والمباني التراثية من تشوية وتدمير قد يمكن ان يحدث عن عمد أو عن جهل انه محاولة لانقاذ هذه المناطق من فقدان هويتها وطابعها العمرانى وليس بهدف اعاقه حركة نمو وتطوير وانما الحفاظ على أصالة المدينة القديمة واستمرارية البيئة التاريخية بها"^[1]

هذه الدراسة " رؤية نقدية لواقع التراث العمراني الخليجي كمدخل لعمارة المستقبل في المنطقة الخليجية" أشارك بها كعضو في الهيئة السعودية للمهندسين اخواني في الامارات ، ومن لهم مكانة كبيرة وتقدير أكبر لجهودهم العظيمة في نهضة بلادهم . فالامارات والكويت و... كل دول المنطقة عزيزة علينا ونهضتهم كما تسرهم تسرنا لأننا إخوة و لأن ولاية أمرنا في دول المجلس بدأوا المسيرة لتكون وطن واحد وهمنا وتقدمنا ونهضتنا واحدة فجزاهم الله خيرا وبارك الله في جهودهم . اذا كنت تحدثت من قبل عن العمارة الحديثة في المنطقة في أكثر من سلسلة ، كما في مجموعة عن العمارة البيئية في قطر^[2] وأخرى عن المفاهيم العمرانية الحديثة في البحرين^[3]] وأخرى عن العمران والطاقة الخليجية في الكويت^[4] ، فإني أرى أن الموروث التراثي العمراني أهم مانبدأ به لنهضتنا العمرانية وما نستمد منه الخبرة والتجربة والابداع لمستقبلنا .ولهذا سنبدا هذه السلسلة في بلدنا الثاني الامارات العربية المتحدة حفظها الله ، عن التراث العمراني وخاصة لما ظهر من إهتمام في هذا البلد بهذا التراث..ستتناول في هذه السلسلة بإذنه تعالى التراث العمراني بتحليل نقدي يستحضر الإيجابيات والسلبيات للوجود التراثي العمراني في المنطقة الخليجية ومن ثم توضيح أهمية هذا التراث العمراني ، لعمارة العصر الحديث أو عمارة المستقبل في المنطقة الخليجية ، وتوضيح الطريقة للإستفادة من هذا التراث .وهي دراسة مختصرة محدودة وأولية . ستتناول الدراسة المحاورالتالية:

- 1- أهمية التراث العمراني
- 2- جودة التراث العمراني الخليجي
- 3- أزمة التراث العمراني في العصر الحاضر
- 4- العمران المعاصر الخليجي وتأثير الانسلاخ من التراث العمراني
- 5- آفاق الاستفادة المستقبلية من التراث العمراني

سنبدا هذه السلسلة :

" رؤية نقدية لواقع التراث العمراني الخليجي كمدخل لعمارة المستقبل في المنطقة الخليجية " بالحديث عن " أهمية التراث العمراني الخليجي " .فهل ياترى للتراث العمراني أهمية ونحن في هذا العصر عصر العلم والتقنية والتكنولوجيا المتقدمة؟؟أو بصيغة أخرى ، خاصة في هذا الزمن الذي أصبح التقدم مقيد تقريباً بكل حديث ؟ وأين تكمن هذه الأهمية ؟

إن الحفاظ على التراث العمراني قد أصبح ضرورة بل ضرورة حضارية "إن الحفاظ على التراث المعماري في المدن التقليدية يعد ضرورة حضارية وبالنظر إلى المدينة العربية المعاصرة ، نجد أنها قد فقدت هويتها العمرانية والمعمارية وارتباطها بالعمارة التقليدية - وتؤثر قوانين وتشريعات البناء المطبقة في معظم المدن القائمة والمستحدثة على الناتج العمراني للمدينة بشكل كبير ، بل إنه يمكن القول أن أحد أهم عوامل تشكيل البيئة العمرانية المشيدة هي قوانين وتشريعات البناء إلى جانب الأسلوب التخطيطي"^[5] و التراث العمراني يحافظ على الهوية ويعتبر مظهراً رئيسياً من عناصر تشكيل الثقافة بالمجتمعات الإنسانية ويحقق

الانتماء ويعتبر ميراث إنساني "يعد الحفاظ على الموروث الثقافي ظاهرة حضارية تنامت بصورة متوازنة حققت استمرارية التفاعل مع المجتمع خلال العصور المختلفة وحتى عصور الحداثة التي اتسمت بطفرات متسارعة نحو التغييرات مما أدى إلى غياب الحس بجدوى التراث العمراني كأحد أشكال هذه الموروث وفاعليته كمحقق للتنمية وجعل إزالة علامات بالمدن القائمة أحد الوسائل المطروحة لتحقيق التطور . تعبر الثقافة والحضارة عن مفهوم شامل يجمع بين مظاهر متعددة ومختلفة منها الفن والأدب والتراث الخ ومن ثم يمثل التراث بوجه عام **مظهراً رئيسياً من عناصر تشكيل الثقافة بالمجتمعات الإنسانية** لما يحتوي من تراكم لذاكرة الماضي المنقلة من جيل إلى آخر الأمر الذي يؤكد الهوية الحضارية ويحقق الانتماء ولعل هذا الإطار من أهم الأسباب التي جعلت التوجهات العملية الحالية تهتم به وتقييمه - **cossosis & kiijkamps 1995** - هذا وقد أدت النزعات الرومانسية كمفهوم غالب في التعامل مع مفردات الماضي في مجتمعات تتسم بسرعة وحدة التغييرات والتي تمثلت كما قال راسكن في كتاباته (أن القيمة في الماضي تكمن في كونه **ميراث إنساني** ولا تكتمل إلا بالإبقاء عليه بصورته الأصلية وبدون أدنى تدخل- **Everett 1949** إلى انقطاع صلة الوصل الحضاري بين قيم الماضي واحتياجات الحاضر يمكن القول بأن هوية المجتمع تعتمد على رواسم تطوره الثقافي- **(cossosis & kiijkamps 1996)** " [6]

و التراث العمراني يحمل قيم قد وظفها التراث العمراني عبر قرونه المديدة حتى كاد المنتج النهائي أن يكون بمستوى يصعب تكراره ، بل إن **هذه القيم التراثية هي الطريق إلى الخبرة لتطوير أنماط بنائية جديدة والعمارة على درجة عالية من التعبير الفني** .المعماري المسلم الشهير حسن فتحي رحمه الله يبحر في أهمية وإمكانات التراث العمراني ودوره الاجتماعي لينثر الدر فيقول " ويؤدي الإحتكاك المتزايد بالمجتمعات المتقدمة صناعياً إلى إضعاف تلك الحضارات التي تطورت فيها الحرف وإلى حدوث الإضطرابات فيها بإستمرار... وإن أكثر الناس تأثراً هم الذين تضطروهم حاجتهم إلى إستهلاك تلك البضائع المنتجة صناعياً. وتكون النتيجة دماراً ثقافياً ونفسياً وأخلاقياً ومادياً. بيد أن هؤلاء الناس أنفسهم هم الذين يملكون المعرفة الدقيقة لكيفية العيش في إنسجام مع البيئة المحيطة فقد أدت الخبرات التي تراكمت عبر آلاف السنين إلى **تطوير لأنماط بناء قليلة التكاليف** توظف فيها المواد المتوفرة محلياً والقدرة على تهيئة المناخ الملائم... وكانت هذه العمارة على درجة عالية من التعبير الفني" [7] ولهذا **يتجه الاهتمام بالماضي لتحسين نمط المعيشة أو لكونه أساسياً لتنمية الهوية الحضارية**

" يتجه الاهتمام بالماضي لكونه مطلب إنساني أو منتج محقق لهدف معين لكونه رد فعل عكسي لمنحة الحضارة الحالية ، لكونه أحد الوسائل المحققة لتحسين نمط المعيشة أو لكونه أساسياً لتنمية الهوية الحضارية **flakner (1987)** ومن تلك عرفت كثير من المنظمات على التأكيد على أهمية التراث القومي وتطوير الهوية الحضارية لما يسببه غيابها من تأثير سلبي على النمط الاجتماعي والتعبير الحضاري (حالة معظم المجتمعات العربية) [8] بل وما يتميز به هذا التراث العمراني أنه هو رمز التطور الإنساني. أحمد السيف أستاذ التخطيط في جامعة الملك سعود يسلط الضوء على ذلك "التراث العمراني هو رمز لتطور الإنسان عبر التاريخ وهو يعبر عن القدرات التي وصل إليها الإنسان في التغلب على بيئته المحيطة به، وكلمة التراث تعني الشئ المتوارث عبر الأجيال وهي كلمة واسعة المعنى ولكنها تعني الأهمية الاجتماعية أو الحضارية أو السياسية أو الدينية للشئ المتوارث... لذلك فالتراث العمراني هو نتاج لتجربة وقيم حضارية وإجتماعية ودينية بين الأجيال....(و)المحافظة على التراث العمراني لاتعني المحافظة على التراث العمراني القديم فقط ، بل تتابع الأسس والمعايير التصميمية والتخطيطية القديمة في الأنماط العمرانية الحديثة" [9]

بل إن **التقدم الحضاري المعماري مرهون بحجم الذخيرة التراثية** .والمعماري علي الشعبي يؤكد ذلك "وإذا كانت بعض الفنون تستطيع أن تبتعد عن التراث لكونها نهاية في حد ذاتها ، فإن التصميم العمراني والمعماري كفنون تطبيقية **لاستطيع التقدم دون تراث**... (و)إذا وسعت النظرة إلى التراث من مجرد آثار وطرز تشكيلية كلاسيكية إلى نظرة واسعة تشمل الكلاسيكي والشعبي وتشمل إمكانات الإستفادة مما هو قائم منه وتشمل نماذجه وأنساقه وتشمل المؤسسات التي أنتجته وتشمل القيم التي ارتبطت بها ، فإن التراث سيصبح مصدراً للأجيال الحالية والقادمة يساعدها على إستعادة القيم الإنسانية في بيئتها وجعلها أكثر قدرة على البقاء" [10] **والتراث يعتبر بياناً آخر للنظام بالغ القوة وعلى نطاق واسع** . ولهذا فننتوري أحد أعظم معماريي القرن وأبرز منظريه ورائد من رواد الطرح الجمالي في العمارة استهوته العناصر التراثية . فيوضح البعد الجمالي العميق للعنصر التقليدي في كتابه الفريد في نوعه الثري في أفكاره العميق في تحليله " **Complexity and Contradiction** فيؤكد أن العمارة لها تقاليد و هذه التقاليد يمكن أن تكون بياناً آخر للنظام بالغ القوة وعلى نطاق واسع فيؤكد أن على المعماري إستغلال التقاليد وإحيائها . وقد تناولت أحد أفكاره العنصر التاريخي وهي فكرة الإحتوائية **Conclusivness** فيرى فيها إستيعاب العمل المعماري لعناصر وأشكال تاريخية يرى المصمم أهمية إيجادها لإحداث أثر نفسي لدى المتلقي بلا ضرورة أو ظرفية تحتمها طبيعة الموقع ونوعية البناء (كما هي عادة معماريي ما بعد الحداثة **Post Modernism**) [11].

ولهذا أهمية التراث تكمن في ثراؤه الجمالي ، كما يؤكد المعماري حسن فتحي رحمه الله" وكانت هذه العمارة على درجة عالية من التعبير الفني"^[12] فيبرز فيه التراكم بين قيم الجمال والطابع والالتزان والمقياس الإنساني " يعد التراكم بين قيم الجمال والطابع والالتزان والمقياس الإنساني من أهم عوامل جذب المناطق التاريخية في المجتمعات الإنسانية ، تلك القيم تشكل بدورها مولدات التعامل والحفاظ على تلك المناطق وكما قال هوبارد (أن المظهر الخارجي لا القيمة التاريخية المضافة يعتبر الأساسي في تقييم البيئة المشيدة (1993) Hubbard ويفسر هذا المفهوم الاهتمام بالحفاظ أو رفض الطابع الحديث لدى المجتمع عن المقارنة بين سوق تقليدي ومبنى قياس وبين منطقة سكنية قديمة وأخرى حديثة من خلال معيار الكيفية الجمالية إطار الخصوصية والتلاعب مع البيئة العمرانية يأتي تعريف الحضارة لكلارك على إنها معنى الاستمرارية والارتباط بالمكان (1974) cantell في مقدمة التعريفات التي تبرز أهمية المباني التاريخية ودورها في التعريف الحضاري حيث توصل الانتماء في عالم يتصف بسرعة التغيير "^[13]

ومع هذه الأهمية الثرية الجمالية للتراث فإن للجانب الاقتصادي أيضاً الحظ الأوفر حيث يعتبر من الأنشطة المحققة للفكر الاقتصادي ذو الكفاءة الربحية "يعد التراث الحضاري في الأونة الأخيرة وفقاً لمرئيات التنمية واقتصاديات الأعمال من الأنشطة المحققة للفكر الاقتصادي ذو الكفاءة الربحية "^[14] فمثلاً قد "سجلت العديد من الأسواق السياحية تزايد في الحركة السياحية من خلال جذب المصادر الثقافية وتحتوي هذه الفئة من المصادر على العديد من نقاط الجذب (جدول رقم 1) التي تساعد المناطق ذات القيمة التاريخية على تحقيق التنمية السياحية المرضية لرغبات السائحين المتزايدة (Gunn 1994) "^[15]

ونتيجة للأهمية الاقتصادية والجمالية للتراث أصبح مركز جذب السياحة." تشكل المناطق التاريخية الموجودة بالمدن والنطاقات بجمهورية مصر العربية في العصر الحديث بجذوره التاريخية وتمثل مراكز جذب سياحي وثقافي ذات نقل كبير ومصدراً سيادياً من مصادر الدخل القومي بجمهورية مصر العربية . وتشهد الساحة في مجال الثقافة بصفة عامة في جمهورية مصر العربية حركة ثقافية وفكرية بصفة عامة وفي مجال المناطق التاريخية بصفة خاصة حيث تؤكد الدعوة الى تنمية هذه المناطق التاريخية .إن وجود المناطق التاريخية في المدن يعطى قيمة خاصة لهذه المدن كما أنها تربط الأجيال المعاصرة بجذورها التاريخية"¹⁶ بل يشكل مركز ثقل للتوجه الجديد نحو التنمية المستدامة ومنها السياحة المستدامة" التنمية السياحية المستدامة sustainable Tourism Developmen أو المفهوم الشامل للتنمية السياحية المستدامة هي الاستفادة من المصادر المحلية لخلق جذب سياحي بدافع المحافظة على البيئة الثقافية (Burr 1994) و عرفت السياحة المستدامة (sustainable Tourism) بأنها السياحة التي يمكن أن تحافظ على حيوية المنطقة لوقت غير محدد من الزمن " "^[17]

إذاً هناك أهمية واسعة ونتائج هائلة في القيم التراثية والعناصر التقليدية . إن الحفاظ على التراث العمراني قد أصبح ضرورة حضارية ،وهو يعتبر مظهراً رئيسياً من عناصر تشكيل الثقافة بالمجتمعات الإنسانية ويحقق الانتماء ويعتبر أيضاً ميراث إنساني . وفيه تحسين نمط المعيشة وأساساً لتنمية الهوية الحضارية. وما يتميز به هذا التراث العمراني أنه هو رمز التطور الإنساني. والتقدم الحضاري المعماري مرهون بحجم تلك الذخيرة التراثية . بل إن القيم التراثية هي الطريق إلى الخبرة لتطوير أنماط بنائية جديدة وعلى درجة عالية من التعبير الفني بل قد لا يكمل الجمال الفني المعماري دون استحضار عناصر التراث. فالتراث يتميز بثراؤه الجمالي فيبرز فيه التراكم بين قيم الجمال والطابع والالتزان والمقياس الإنساني . ومن حيث الجانب الاقتصادي فيعتبر من الأنشطة المحققة للفكر الاقتصادي ذو الكفاءة الربحية. بل إن التراث أصبح مركز جذب للسياحة المحلية.

هنا يبرز سؤال نجيب عليه في العدد القادم :
مع هذه الأهمية ماهي الجودة التي يحتويها هذا التراث؟

المراجع

¹ سوسن الطوخي وحسن وهي "هية المناطق التاريخية وانعكاسها على التفاعل الاجتماعي" المؤتمر الدولي الأول للحفاظ المعماري بين النظرية والتطبيق ،دبي ،مارس 2004

- 2 جمعية أصدقاء البيئة: سلسلة دراسات "رؤى بيئية لمستقبل العمارة الخليجية" نشرت قبل عام في نشرتهم صوت البيئة ثم بعد ذلك وضعها المركز على موقعهم على الرابط : <http://www.myqatar.org/library/bohoth.htm>
- 3 جمعية المهندسين البحرينية: سلسلة مقالات "إعادة صياغة المفاهيم العمرانية في المدينة الخليجية لتحسين أدائها الوظيفي وقيمها الجمالية" نشرت في مجلة المهندس البحرينية- وتبنى موقع بيت المعماريين العرب نشرها على الانترنت : http://www.arch.arab-eng.org/forum.php?action=list&cat_id=67
- 4 بدأت بنشرها مجلة "عمار" وصدرت حتى الآن الحلقات الأولى والثانية والثالثة (من تسع) في الأعداد 89 و90 و90
- 5 فايز محمد فكري أحمد "اشكالية خصائص المدينة التقليدية" ودور قوانين وتشريعات البناء في الحفاظ هلى الطابع المعماري"المؤتمر الدولي الأول للحفاظ المعماري بين النظرية والتطبيق، دبي، مارس 2004
- 6 محمد أمين ومحمد رجب " مستقبل / استثمار الماضي في مدننا المعاصرة الطرح والإمكانات دبي كقطاع دراسي إشكالية تنسيق المواقع للبيئات التراثية. بمصر مع فكر المحافظة والتجدي "المؤتمر الدولي الأول للحفاظ المعماري بين النظرية والتطبيق، دبي، مارس 2004
- 7 فتحي ، حسن"الطاقات الطبيعية والعمارة التقليدية"بيروت، 1988
- 8 محمد أمين ومحمد رجب " مستقبل / استثمار الماضي في مدننا المعاصرة الطرح والإمكانات دبي كقطاع دراسي إشكالية تنسيق المواقع للبيئات التراثية. بمصر مع فكر المحافظة والتجدي "المؤتمر الدولي الأول للحفاظ المعماري بين النظرية والتطبيق، دبي، مارس 2004
- 9 السيف، أحمد المحافظة على التراث العمراني"ورقة مقدمة لألمسية العمارة الإسلامية والتراث في المهرجان الوطني للتراث والثقافة،الرياض، 1997م
- 10 الشعبي ، على "تأثير التراث في مستقبل العمران" ورقة مقدمة لألمسية العمارة الإسلامية والتراث في المهرجان الوطني للتراث والثقافة،الرياض،1997م
- 11 فنثوري روبرت"التعقيد والتناقض في العمارة" ترجمة سعاد مهدي 1987م
- وراجع: الناجم، علي والذرمان فواد"بعض أطروحات فنثوري" مجلة المهندس جماد ثاني 1412هـ
- وراجع الناجم علي: الفئاتر محاولة للإبداع المعماري" نشرة العمران، محرم 1420هـ
- 5 السبيعي،عبدالله"اكتشاف النفط وأثره على الحياة الاقتصادية في المنطقة الشرقية-1352-1380/1933-1960" مطابع الشريف،1989،
- 6 المذلول، صالح"المدينة العربية الإسلامية،1994م
- 7 Winter Halter"Indigenous Housing Pattern and Design Priciples in the Eastern Province of Saudi Arabia" Adissertation for the degree of Doctor, 1981
- 8 Winter Halter" Housing Pattern in the Eastern Province of Saudi Arabia", Proceedings of IAHS international Conference, 1978
- 9 أكبر،جميل "عمارة الأرض في الإسلام"بيروت،1992م
- 10 البراق،خالد وحفني عصام"أثر البيئة على الطابع المعماري للمسكن في المملكة"المؤتمر الهندسي السعودي الخامس،مكة،1999م
- 11 الوكيل شفق وسراج محمد"المناح وعمارة المناطق الحارة"عالم الكتب،القاهرة،1989م
- 12 فتحي ، حسن"الطاقات الطبيعية والعمارة التقليدية"بيروت، 1988
- 13 محمد أمين ومحمد رجب " مستقبل / استثمار الماضي في مدننا المعاصرة الطرح والإمكانات دبي كقطاع دراسي إشكالية تنسيق المواقع للبيئات التراثية. بمصر مع فكر المحافظة والتجدي "المؤتمر الدولي الأول للحفاظ المعماري بين النظرية والتطبيق، دبي، مارس 2004
- 14 محمد أمين ومحمد رجب " مستقبل / استثمار الماضي في مدننا المعاصرة الطرح والإمكانات دبي كقطاع دراسي إشكالية تنسيق المواقع للبيئات التراثية. بمصر مع فكر المحافظة والتجدي "المؤتمر الدولي الأول للحفاظ المعماري بين النظرية والتطبيق، دبي، مارس 2004
- 15 محسن محمد إبراهيم مصطفى " تأهيل المناطق السياحية التاريخية بالمدن ودورة في التنمية السياحية"المؤتمر الدولي الأول للحفاظ المعماري بين النظرية والتطبيق، دبي، مارس 2004
- 16 أ سوسن الطوخي وحسن وهي "أهمية المناطق التاريخية وانعكاساتها على التفاعل الاجتماعي"المؤتمر الدولي الأول للحفاظ المعماري بين النظرية والتطبيق، دبي، مارس 2004
- 17 محسن محمد إبراهيم مصطفى " تأهيل المناطق السياحية التاريخية بالمدن ودورة في التنمية السياحية"المؤتمر الدولي الأول للحفاظ المعماري بين النظرية والتطبيق، دبي، مارس 2004